

الباب العاشر

الكفاح في سبيل الحرية

الفضل الأول

مرثون

يقول هيرودوت : « في أثناء حكم دارا وخشيارشاي وأرتخشتر لآقت بلاد اليونان من الأهوال ما لم تلقه في العشرين جيلا السابقة على هذا العهد^(١) » وكان لابد أن يلقي أهلها جزاء نمامهم وتقدمهم . ذلك أن انتشارهم في كل مكان لابد أن يؤدي عاجلا أو آجلا إلى قيام النزاع بينهم وبين إحدى الدول العظمى . وإذا كان اليونان يتخذون البحر مطية لهم ، فقد أنشأوا فيه طريقاً تجارياً يمتد من شاطئ أسبانيا الشرقى غرباً إلى أقصى ثغور البحر الأسود شرقاً . وأخذ الطريق المائي الأوربي - الذي يخترق بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية - ينافس الطريق الشرقى البرى والبحرى - الذى يخترق الهند وفارس وفينيقية - ويفوقه فى الأهمية على مر الأيام ، ونشأ من هذه المنافسة نزاع شديد لم يخمد أواره قط كان لابد أن يؤدي إلى ما أدى إليه كل نزاع سابق فى تاريخ البشر ، ألا وهو الحرب السافرة التى لم تكن معارك لادى Lade ، ومرثون ، وپلاتية ، وهيميرا Hymera ، ومكالى Mycale ، ويوريمدون Eurymedon ، وغرانيقوس وإسوس ، وأرييلا ، وكانى ، وزاما لإحداثات منها صغيرة ، وانتصر الأوربيون على الشرقيين فى هذا الصراع لأسباب عدة ، منها أن النقل البحرى أقل نفقة من النقل البرى ،

ومنها أن من القوانين التي تكاد تتحكم في التاريخ أن الشمال الخشن ذا الزعة الحرية ، ينصر دائماً على الجنوب اللين السهل مبدع الفنون .

في عام ٥١٢ قبل الميلاد عبر دارا الأول ملك الفرس مضيق البسفور وغزا سكوديا ، ثم زحف غرباً وفتح تراقية ومقدونية ، ولم يعد إلى عواصم ملكه إلا بعد أن وسع رقعة إمبراطوريته حتى شملت فارس ، وبلاد الأفغان ، وشمالى الهند ، والتركستان ، وأرض الحريرة ، وشمالى بلاد العرب ، ومصر ، وقبرص ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وشرقى بحر إيجه وتراقية ، ومقدونية . وكانت نتيجة هذه الفتوح أن أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم حتى ذلك الوقت قد وسعت رقعتها أكثر مما يجب عليها أن توسعها ، حتى ضمت إليها فاتحها في المستقبل وأيقظتهم من سباتهم ، ولم يبق من الأمم الكبرى في خارج هذا النظام الشامل من نظم الحكم والتجارة إلا أمة واحدة هى أمة اليونان ، التي لم يكده دارا يسمع شيئاً عنها خارج أيونيا قبل عام ٥١٠ ق . م ، وقد سأل مرة عن « الأثينيين - من هم (٢) ؟ » . وحدث في عام ٥٠٦ أن قامت ثورة في أثينة انتهت بخلع الطاغية هيپاس ؛ ففر إلى المرزبان الفارسي في سرديس وتوسل إليه أن يعينه على استرداد سلطانه ، وعرض عليه إذا استرده أن يتولى حكم أتكا من قبل الفرس .

وكان ذلك إغراء قوياً زاده قوة تحرش مؤقت . ذلك أن المدن اليونانية التي ظلت خاضعة لسلطان الفرس نحو خمسين عاماً ثارت فجاءة على ولاتها من قبل الفرس ، وطردتهم منها وأعلنت استقلالها . وذهب أرسطجراس الميليتي إلى اسبارطة يستمد منها العون ، ولكنه لم يفلح في بغيته ، فجاء إلى أثينة ، وهى المدينة الأصلية التي نشأ منها كثير من المدن الأيونية ، وما زال يلح عليها حتى أقنعها بأن ترسل عمارة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة لمساعدة الثوار . وكان الأيونيون في هذه الأثناء يعملون بعنف وبغير نظام هما من خصائص اليونان

في كل زمان ومكان ، فكانت كل مدينة نائرة تجيش جيوشها ولكنها تستبقها تحت قيادة مستقلة . وزحف الجيش الميلتي ، ولدى قيادته من الشجاعة أكثر مما لديه من الحكمة ، حتى وصل إلى سرديس ، وأحرق المدينة العظيمة ودكها دكا . ونظم الحاف الأيونى أسطولا متحداً ، ولكن سفن ساموس عثمت صلحاً سرياً منفرداً مع المرزبان الفارسي ، فلما أن التمت العمارة البحرية الفارسية بالعماراة الأيونية عند لادى في عام ٤٩٤ ، ودارت بينهما معركة من أشد المعارك البحرية في التاريخ ، انسحبت سفن ساموس المحسرن دون أن تشارك في القتال ، وحدث حنوها كثير من أفسام الأسطول الأيونى^(٣) . وهُزم الأيونيون هزيمة منكرة ، ولم تقف الحضارة الأيونية بعدئذ إفاقة كاملة من هذه الكارثة المادية والروحية ، وحاصر الفرس ميلتس ، واستولوا عليها ، وقتلوا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، حتى صارت منذ ذلك اليوم بلدة قليلة الشأن . وبسطوا سلطانهم مرة أخرى على أبونيا ، وغضب دارا لتدخل أثينة في شئون ملكه ، فصمم على فتح بلاد اليونان ، وألفت أثينة الصغيرة نفسها ، جزاء لها على مساعدتها الكريمة لبناتها من المدن الأيونية ، وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أكبر مائة مرة من أتكا .

و عام ٤٩١ خاض أسطول فارسي قوامه ستمائة سفينة بقيادة داتيس Datis عباب بحر إيجه من جزيرة ساموس ، ووقف في طريقه ليخضع جزائر سكلديس ، ووصل إلى ساحل عوبية يحمل مائتي ألف محارب . واستسلمت عوبية بعد مقاومة قصيرة عبر الفرس بعدها الخليج الذي يفصلها عن أتكا ، وعسكر هؤلاء الجنود عند مرثون لأن هيباس قد نصحهم بأن في وسعهم أن يستخدموا في هذا السهل فرسانهم ، وهم من هذه الناحية يفوقون اليونان كثيراً^(٤) .

واضطربت بلاد اليونان أشد الاضطراب لهذه الأنباء ، ذلك أن الجيوش الفارسية لم تكن قد غلبت قط قبل هذا الغزو ، ولم تكن أمة من الأمم قد

استطاعت أن تصمد زحف جيوش الإمبراطورية . فهل في مقدور أمة ضميعة ، مشتتة ، لم تألف من قبل الاتحاد لغرض عام ، أن تقف في وجه تيار الغزو الجارف ؟ وترددت دول اليونان الشمالية في الوقوف في وجه هذه الجيوش الجرارة ، واستعدت اسبارطة استعداداً يشوبه كثير من التردد ، وأجازت للخرافات أن تؤخر التعبئة العامة ؛ أما بلاتية الصغيرة فلم تتوان عن العمل السريع وبعثت بقسم كبير من أهلها يستحثون السير إلى مرثون . وحرر ملتيا دس العبيد في أثينة وضمهم إلى الجيش مع الأحرار ، وزحف بهم إلى ميدان القتال من فوق الجبال . ولما التقى الأعداء كان عدد الجيشين اليوناني حوالى مائة ألف مقاتل ، أما جيوش الفرس فكانت عدتها في أغلب الظن حوالى مائة ألف (٥) . ولم يكن الفرس تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم كانوا يألفون أن يحاربوا فرادى ، ولم يكونوا مدربين على أساليب اليونان في الدفاع والهجوم الجماعين بصفوفهم المتراسة . وجمع اليونان بين النظام والشجاعة . وقد نجوا من الهزيمة الملاحقة بالمثل الذى ضربه لهم أرسطيديس Aristides إذ نزل عن القيادة لملتيا دس ، وإن كانوا قد ارتكبوا ذلك الخطأ الشنيع الدال على الحمق وهو توزيع القيادة العليا بين عشرة قواد يتولاها كل واحد يوماً (٦) . واستطاعت القوة اليونانية الصغيرة بفضل حنكة هذا الجندى القوى الحشن الطباع أن توقع بالبحافل الفارسية لجرارة هزيمة منكرة . ولم تكن هذه المعركة من معارك التاريخ الفاصلة فحسب ، بل كانت فوق ذلك من أعظم الانتصارات التى لا يصدقها العقل . وإذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال اليونان عنها ، فإن الفرس قد خسروا في مرثون ٦٤٠٠ من رجالهم ، ولم يخسر اليونان إلا ١٩٢ . ووصل الاسبارطيون إلى الميدان بعد انتهاء المعركة ، وندموا على تباطؤهم ، وأثنوا على الفائزين .

الفصل الثاني

أرستيديز وثمانستكليز

إن سيرة ملتيا داس وأرستيديز بعد معركة مرثون لتوضيح ما في أخلاق اليونان وما في تاريخهم من مزيج عجيب يجمع بين النبيل والقسوة ، والمثالية والانحطاط . ولتحدث أولاً عن ملتيا داس فنقول إنه قد غره ثناء بلاد اليونان كلها عليه فطلب إلى الأثينيين أن يعدوا أسطولاً من سبعين سفينة يتولى قيادته هو وحده لا ينازعه في ذلك منازع . ولما أن أعدت السفن سار بها إلى پاروس وطلب إلى أهلها مائة وزنة (نحو ٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) وإلا أفنهم عن آحرهم . ولكن الأثينيين استدعوه وفرضوا عليه غرامة قدرها خمسون وزنة ، ولما مات بعد استدعائه بقليل أدى الغرامة ابنة سيمون Cimon الذي صار فيما بعد منافساً بركليز (٨) .

وعاش الرجل الذي تحلى للملتيا داس عن مكانه في مرثون ونجا من المزالق التي توجد عادة في طريق الظافرين . ذلك أن أرستيديز كان في حياته وأخلاقه اسبارطياً يعيش في أثينة ؛ وقد استحق بحلقة المادى الرزين ، وبساطته ، وتواضعه ، وأمانته التي لا تنال منها الأحداث ، استحق بهذه الصفات لقب العادل ، ولما أن تليت على المسرح العبارة الآتية أثناء تمثيل إحدى مسرحيات إيسكلوس :

« فهو لا يتظاهر بالعدالة ولكن العدالة طبيعية فيه ، وهي هدفه في أعماله ؛ ومن عقله تنفجر ينباع الحكمة والقفنة » .

لما أن تليت هذه العبارة التفت المستمعون كلهم ناحية أرستيديز ، لأنهم رأوا فيه الأنموذج الحي لهذه الصفات (٩) . ولما أن استولى اليونان على معسكر القرص في مرثون ، ووجدوا في خيامهم ثروة طائلة ، عهدوا إلى أرستيديز المحافظة

عليها « فلم يأخذ منها شيئاً لنفسه ، ولم يسمح لأحد بأن يغتال منها شيئاً (١٠) »
ولما أن طلب إلى حلفاء أثينة بعد الحرب أن يسهموا في أداء جزية سنوية
إلى خزنة الحلف في ديلوس ليستعان بها في الدفاع عن بلاد اليونان
عامة ، اختير أرستيديز ليقدر ما تؤديه كل مدينة ، ولم يعترض أحد على
قراراته . لكن إعجاب الناس به كان رغم هذا كله أكثر من حبهم إياه .
وكان صديقاً حميماً لكليستينز الذي وسع نطاق الديمقراطية إلى حد بعيد ،
ولكنه كان يرى أنها ذهبت إلى أبعد حد مأمون ، وأنه إذا ما زيدت
سلطة الجمعية إلى أكثر مما كان لها ، أدى ذلك إلى فساد الإدارة وإلى
اضطراب النظام . وكان يندد بالفساد أينما وجده ، وخلق بذلك لنفسه
كثيراً من الأعداء . واتخذ الحزب الديمقراطي الذي يرأسه ثمستكليز نظام
نقي عدم المخلصين للحكومة ، وكان قد تقرر حديثاً ، للتخلص من
أرستيديز ؛ وفي عام ٤٨٢ نفي الرجل الوحيد في تاريخ أثينة كله الذي
جمع بين الشهرة والأمانة ، وكان نفيه في أوج مجده . والعالم كله يعرف
القصة التي تقول - وقد تكون هي الأخرى خرافة لا ظل لها من الحقيقة -
إن أرستيديز نقش اسمه على اللوحة التي يكتب عليها اسم من يراد نفيه
(الأستراكون) حين طلب إليه ذلك رجل أمي لا يعرفه ولكنه لم يعد يطبق
سماع لقب العادل يطلق عليه ، فحقد عليه لهذا السبب كما يحقد أوساط
الناس عادة على العظاء . ولما أن عرف أرستيديز أن الجمعية قررت نفيه
قال إنه يرجو ألا يأتي اليوم الذي تذكره (١١) فيه أثينة (*) .

ولا يسع المؤرخ إلا أن يعترف أن المتصرفين في الشؤون العامة في أثينة كانوا
يتصرفون بما يتصف به رجال الحكم أحياناً من موت الضمير . لقد كان ثمستكليز

(*) ولعله كان يقول مع الشاعر العربي :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفترقه البدر

(المترجم)

شعلة من الذكاء والمقدرة لا يقل في ذلك عن ألقبيادس الذي عاش في عصر متأخر عنه . ويقول فيه توكيديدس^(١٢) وهو المعروف دائماً باعتداله : « إنه خليق بأن نعجب به إعجاباً خارقاً للعادة منقطع النظر » . وقد أنقذ أثينة كما أنقذها ملتيداس ، ولكنه لم يستطع إنقاذ نفسه ؛ وكان في مقدوره أن يقهر إمبراطورية عظيمة ، ولكنه لم يكن في وسعه أن يقهر ما في نفسه من شهوة السلطان ، « وكان يتلقى بمضض وعدم عناية » ، كما يقول أفلوطرخس ، ما يسدى إليه من النصيح لتقويم المعوج من أخلاقه وسلوكه ، ولا يقبل أن يعلمه أحد شيئاً من الرقة والمجاملة للناس ؛ لكنه حتى بعد أن تقدمت به السن كان يعنى بكل ما يقال له إذا كان يهدف إلى إصلاح عقله ؛ أو يزيد من قدرته على تصريف شئون الدولة ، وهو واثق من قدرته الطبيعية في هذه الأمور^(١٣) . وكان من سوء حظ أثينة أن تمسكليز وأرستيديز قد أحبا معاً فتاة واحدة هي استسلوس الكيوسية Stesilaus of Coes ، وأن ما ولده هذا الحب من حقد كل منهما على الآخر لم يزُل بعد أن زال الجبال الذي أشعل النار في قلبهما^(١٤) . بيد أن تمسكليز كان هو الذي أعد العدة للنصر في سلاميس وأحرز هذا النصر بما أوتى من همة وفراسة . وكانت موقعة سلاميس أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ اليونان كله . ذلك أنه قد أعد منذ عام ٤٩٣ مشروع إنشاء مرفأ جديد لأثينة في پيريه ، وشرع في إنشائه بالفعل ، وفي عام ٤٨٢ أقع الأثينيين بأن ينزلوا عن نصبهم في مال كان سيوزع عليهم من محصول مناجم الفضة في لوريوم Leurium ، وأن يخصصوا المال لإنشاء مائة سفينة حربية من ذوات الثلاثة الصفوف من المجاذيف . ولولم ينشئ الأثينيون هذه السفن لما استطاعوا مقاومة خشيارشاي .

الفصل الثالث

خشيارشاي أو أخشويرش (*)

توفي دارا الأول في عام ٤٨٥ وخلفه خشيارشاي الأول . وكان الوالد والولد رجلين يمتازان بالمقدرة العالية والثقافة الرفيعة ، ولهذا يخفى من بطن أن الحرب اليونانية الفارسية كانت نزاعاً بين الحضارة والمهجية . وحسبنا دليلاً على هذا تلك الحادثة التي وقعت حين أرسل دارا رسله إلى أثينة واسبارطة قبل أن يغزو بلاد اليونان ، يطلب إليهما أن ترسلا إليه التراب والماء رمزاً لخضوعهما لسلطانه ، فما كان من المدينتين كلتاهما إلا أن قتلتا الرسل . وتوات نذر الشوم على اسبارطة فخشيت عاقبة فعلتها . وندمت على خرقها التقاليد الدولية المرعية ، وطلبت إلى أهلها أن يتفده منهم اثنان يذهبان إلى فارس وأن يقبلا أى عقاب يفرضه عليهما الملك العظيم ليكفرا به عن غدر مواطنيهما . وتطوع اسپرثياس Spertthias ، وبوليس Bulis من أبناء الأسر الغنية القديمة في المدينة ، للقيام بهذه المهمة ، وسارا إلى خيمة خشيارشاي وعرضاً عليه أن يقتلهم ليكفرا عن مقتل رسله ، ويقول هيردوت إن خشيارشاي « أجابهما جواب الشهم الكريم وقال إنه لا يفعل ما فعله اللسدونيون ، حين قتلوا رسله واعتلوا بعملهم هذا على القوانين التي يشترك الناس كلهم في التقيد بها . وإذا كان قد لامهم على فعلهم هذا فإنه لا يفعل مثل ما فعلوه ولا يرتكب من الإثم ما ارتكبهوه » .

وأخذ خشيارشاي يستعد لهجومه الثاني على اليونان استعداداً كاملاً بطيئاً . فقضى أربع سنين يحشد الجند ويجمع العناد والزاد من جميع الولايات الخاضعة لسلطانه ، ولما أن بدأ الزحف أخيراً في عام ٤٨١ كان جيشه في أغلب الظن

(*) أو زكسبر كما يسميه اليونان .

أكبر جيش في التاريخ كله قبل هذا القرن الذي نعيش فيه . ويقدره هيرودوت تقديراً بعيداً عن الاعتدال فيقول إنه كان مؤلفاً من ٢٠٠٠٠٠ مقاتل ، ومثلهم من المهندسين والأرقاء ، والتجاء ، ورجال التموين والعاشرات . ويقول - ولعله هو نفسه لم يكن مؤمناً بقوله - إن جيش خشيارشاي كان إذا ورد الماء ليشرّب جفت أنهار برمتها^(١٦) . وكان هذا الجيش بطبيعة الحال خليطاً من أمم مختلفة الأجناس والمشارب ، وكان تأليفه على هذا النحو شديد الخطورة عليه . كان فيه فرس ، وميديون ، وبابليون ، وأفغان ، وهنود ، وبكتريون ، وسيجديون ، وساكيون ، وأشوريون ، وأرمن ، وكلثيون ، وسكوذيون ، ويونيون ، وميسيون ، وپفلجونيون ، وفريجيون ، وتراقيون ، وتساليون ، ولكريون ، ويوثوثيون ، وإبوليون ، وأبونيون ، وليديون ، وكاريون ، وكليكيون ، وقصريون ، وفينيقيون ، وسوريون ، وعرب ، ومصريون ، وأحباش ، ولييون وأجناس أخرى كثيرة . وكان منهم المشاة ، والفرسان ، وراكبو العربات ، والفيّلة ، ومعهم أسطول من سفن النقل والسفن الحربية يبلغ عددها حسب رواية هيرودوت ألفاً ومائتي سفينة وسبع سفن . ولما قبض الفرس في معسكرهم على جواسيس يونان ، وأمر القائد بقتلهم ، نقض خشيارشاي أمره وعما عن الجواسيس ، وأمر أن يحرسوا أثناء مرورهم بين قواته ، ثم أطلق سراحهم معتقداً أنهم إذا نقلوا إلى أثينة واسبارطة مدى استعداده ، فإن ما بقي من بلاد اليونان سوف يستسلم له^(١٧)

ووصل هذا الجيش العظيم إلى الملسينت (الدردنيل) في عام ٤٨٠ وكان مهندسوه المصريون والفينيقيون قد أقاموا عليه جسراً يعد من أعظم أعمال القدماء الهندسية ، وأكثرها إثارة للإعجاب ، وإذا جاز لنا مرة أخرى أن نصدق هيرودوت قلنا إن ٦٧٤ سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة من المحاذيف ، أو من ذوات الخمسين مجدافاً ، قد صفت صفين في عرض المضيق ، ووجهت كل سفينة عكس التيار ؛ وثبتت في مكانها بهلب ثقيل . ثم مد الصناع حبالاً من الكتان

أو نبات البردى فوق كل صف من السفن من أحد الشاطئين إلى الشاطئ الذى يقابله ، وربطوا هذه الحبال من كل سفينة من السفن ، وشدوها إلى روافع على البر . وقطعت أشجار ونشرت ألواحاً وضعت فوق الحبال وبعكس اتجاهها وربطت هذه الحبال كما ربط بعضها ببعض . وغطيت الألواح بالحسك ؛ ثم غطى الحسك بالتراب ، ثم عبد هذا كله حتى يكون شبيهاً بالطريق الممهّد ، وأقيم حاجز على كلا الجانبين يبلغ من الارتفاع حدا يمنع الحيوانات من أن يدخلها الخوف إذا أبصرت البحر^(٨) . ولكن كثيراً من الحيوانات والآدميين كان لا بد من ضربها بالسياط قبل أن تجرؤ على اجتيازه . واحتملها الحسر أحسن احتمال ، ولم تمض إلا سبع ليال وسبعة أيام حتى كان الجيش كله قد مر عليه بسلام . ورأى أحد الأهلين هذا المنظر العجيب فأيقن أن خشيارشاي هو زيوس بعينه ، وسأل كيف يكلف رب الآلهة والبشر نفسه عناء فتح بلاد اليونان الصغيرة ، وهو الذى يستطيع أن يدمر هذه الأمة المتعاطمة بصاعقة واحدة^(٩) .

وزحف الجيش سرا مجتازاً تراقية ثم نزل إلى مقدونية وتساليا بينما كان الأسطول الفارسى يلزم الساحل يتجنب عواطف بحر إيجه بالسير جنوباً مجتازاً قناة حفرها رجال مسخرون ، ثم قطع من برزخ جبل أثوس مسافة يبلغ طولها ميلاً وربع ميل . ومن القصص المتواترة أنه كلما أكبل الجيش وجبتين حل الخراب التام بالمدينة التى تطعمه ، وأنفقت ثاسوس أربعائة وزنة من الفضة (أى نحو ثلاثين مليون ريال أمريكى) لإطعام جيش خشيارشاي يوماً واحداً^(٢٠) . واستسلمت مدن اليونان الشمالية الممتدة إلى حدود أتكا إما خوفاً من الغزاة وإما طمعاً فى الرشا الضخمة التى كانوا يوزعونها على الأعداء ، وانضمت جيوشها إلى جمافل خشيارشاي ، ولم تستعد للقتال من مدن الشمال إلا پلاتيا وئسپيا .

الفصل الرابع

سلاميس

كيف نستطيع أن نتصور في هذه الأيام ما استولى على ايونان الجنوب من هول وفزع حينما اقترب منهم هذا السيل الجارف المتبايل الألسنة الذي لا يبقى ولا ينز؟ لقد بدا لهم أن مقاومته حق وجنون ، لأن الدول التي ظلت موالية للقضية اليونانية لم يكن في وسعها أن تحشد معشار قوة خشيارشاي ؛ وعملت أثينة واسبارطة للمرة الأولى معا وتعاونتا معاونة صادقة ، وأرسلتا الوفود مسرعة إلى كل مدينة في البلوبونيز تتلمس العتاد والرجال ، وأجابتها معظم الدول إلى ما طلبت ؛ ولكن أرجوس رفضت الرجاء ورضيت بما أصابها من مذلة . وجهزت أثينة أسطولا اتجه إلى الشمال للقاء العمارة الفارسية الضخمة ، وأرسلت اسبارطة قوة صغيرة بقيادة الملك ليونداس لتعطل تقدم خشيارشاي عند ترموبيلي . والتقى الأسطولان عند أرتمزيوم Artisium بالقرب من ساحل عوبية الشمالي . ولما رأى قواد الأسطول اليوناني ضخامة الأسطول الفارسي فكروا الانسحاب ، ولكن العوبيين خشوا أن ينزل الفرس في بلادهم ، فأرسلوا إلى ثمستكايز قائد القسم الأثيني رشوة قدرها ثلاثون وزنة (نحو ١٨٠.٠٠٠ ريال أمريكي) على شريطة أن يقنع قواد اليونان بقتال الأعداء . ونجح ثمستكايز في إقناعهم بعد أن اقتسم المال معهم^(٢١) . ثم هداه ما يمتاز به من دهاء إلى وسيلة أخرى ظن فيها فائدة ، فأرسل بعض البحارة ليقشوا على الصخور رسائل إلى اليونان المنضمين إلى الأسطول الفارسي يرجونهم فيها أن يفرؤا من هذا الأسطول ، فإن كبر عليهم هذا فلا أقل من أن يمتنعوا عن قتال أهلهم وبلادهم . وكان يأمل أن يتأثر الأيونيون بهذه الرسائل إذا رأوها ، وألا يجرؤ خشيارشاي إذا قرأها وأدرك معناها على استخدام

الهيلينيين في المعركة . ودار القتال بين الأسطولين المتعادين طوال النهار ، فلما جن الليل وقف القتال قبل أن يعقد لواء النصر لأحد الفريقين ، وارتد اليونان إلى أرتمزيوم والفرس إلى أفيتي Aphetae . وإذا ما ذكرنا اختلاف القوتين في عدد السفن رأينا أن اليونان كانوا على حق حين حسبوا نتيجة المعركة نصرا لهم على أعدائهم . ولما جاءتهم الأنباء بكارثة ترموبيلي أبحر الجزء الباقي من الأسطول اليوناني نحو الجنوب إلى سلاميس ليصد الغزاة عن أثينة .

وكان في هذه الأثناء قد غلب على أمره عند « الأبواب الحارة » رغم ما أبداه من المقاومة الشديدة التي تعد أروع مقاومة في التاريخ كله . ولم ينتصر عليه أعداؤه بفضل شجاعتهم ، بل انتصروا عليه بخيانة اليونان أنفسهم . ذلك أن بعض اليونان من أهل تراكيس Trachis لم يكتفوا بأن يدلوا خشيارشاي على طريق ملتو طويل فوق الجبال ، بل فعلوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إذ قادوا الجيش الفارسي من هذا الطريق ليهجموا الاسبارطيين من الخلف . وقتل في المعركة التي نشبت وقتئذ ليوننداس والثلاثائة الكبار الذين كانوا معه إلا رجلين ؛ ونقول الكبار لأنه لم يختر معه إلا من كان لهم أبناء حتى لا يكون موتهم سببا في انقراض أية أسرة اسبارطية . أما الرجلان اللذان لم يقتلا فقد سقط أحدهما في معركة پلانية ، وشنق الثاني نفسه اعتقادا منه أن نجاة نجله العار (٢٢) . ويؤكد المؤرخون اليونان أن الفرس خسروا في المعركة عشرين ألفا ، وأن خسارة اليونان لم تزيد على ثلثائة (٢٣) . وكتب على قبر أولئك الأبطال تلك القبرية المذاعة الصيت : « اذهب أيها الغريب ونبي السلمونيين أنا نحيا هنا إطاعة لشرائعهم (٢٤) » .

ولما عرف الأثينيون أنه لم يبق أمام الفرس ما يصددهم عن أثينة أعلنوا في المدينة أن من واجب كل أثيني أن يعمل على نجاة أسرته بحجر وسيلة يراها . فنهض من فرلى لميجينا ، ومنهم من فرلى سلاميس ، ومنهم من خرج إلى تروزين Troezen ،

وانضم بعض الرجال إلى بحارة الأسطول العائد من أرتمزيوم . ويصور لنا أفلوطرخس^(٢٥) صورة رائعة مؤثرة للحيوانات المستأنسة في المدينة وهي تسير خلف أبحابها إلى شاطئ البحر ، حتى إذا ما امتلات السفن بالرجال ولم يبق فيها مكان للحيوانات ملأت الجو بأصواتها . وكان من بينها كلب يملكه أكسانثيوس Xanthippus والد بركليز ، قفز إلى البحر وأخذ يسبح إلى جانب السفينة حتى إذا ما وصل إلى سلاميس مات من فرط الإعياء^(٢٦) . وفي وسعنا أن ندرك ما كان يسود تلك الأيام من احتياج وانفعال ، حتى نذكر أن رجلا من الأثينيين وقف في الجمعية الوطنية يشير بالاستسلام ، فإذ كان من مواطنيه إلا أن قتلوه في التو والساعة ، وأن جماعة من النساء ذهبن إلى بيته ورجعن زوجته وأطفاله بالحجارة حتى يهلكوا^(٢٧) . ولما أقبل خشيارشاي على المدينة ألقاها خاوية على عروشها أو تكاد ، فأعمل فيها السلب والنهب وأشعل فيها النار

وبعد قليل دخل الأسطول الفارسي المؤلف من اثنتي عشرة سفينة خليج سلاميس ، واستعدت للقائه ثلثمائة سفينة يونانية من ذات الصفوف الثلاثة من المختلفين ، وكانت لا تزال ألويتها معقودة لقواد مختلفين ، وكانت كثرة هؤلاء القواد تعارض في المخاطرة بالاشتباك مع الأسطول الفارسي في معركة فاصلة . وأراد ثمستكليز أن يضطر اليونان إلى القتال اضطراراً ، فلجأ إلى حيلة لو أنها انتهت بفوز الفرس لكان جزاؤه الموت لا محالة . ذلك أنه أرسل إلى خشيارشاي عبداً يثق به يقول له إن اليونان يعزمون الفرار في أثناء الليل ، وإن الفرس لا يستطيعون منع هذا الفرار إلا إذا أحاطوا بالأسطول اليوناني ؛ وعمل خشيارشاي بالنصيحة . ووجد اليونان في صباح اليوم الثاني أن المسالك كلها قد سدت في وجوههم ، فلم يروا بدأ من القتال . وجلس خشيارشاي في أهبة وجلال عند سفح جبل إيجليوس Aegaleus على شاطئ أتكا المقابل لخليج سلاميس يرقب سير القتال ، ويدون أسماء من يبدون من رجاله شجاعة ممتازة . وانتهت

(٢٦ - ١٣ - مجلد ٢)

الواقعة بفوز اليونان بفضل براعتهم في أساليب الكر والفر ، وفي ركوب البحار ، وبسبب ما أحدثته في صفوفهم من الخلل واضطراب اختلاف اللغات والعقول ، وكثرة ما لديهم من السفن التي عاقبتهم عن سرعة الحركة . ويقول ديودور إن الغزاة خسروا مائتي سفينة مقابل أربعين خسرها المدافعون ، ولكننا لانعرف ما يقوله الفرس أنفسهم عن النتيجة . ولم يقتل من اليونان إلا عدد قليل حتى من رجال السفن التي خسروها ؛ فقد كانوا كلهم بارعين في السباحة ، ولذلك خاضوا الماء حتى وصلوا إلى البر حينما غرقت سفائنهم (٢٨) . ومرت المراكب الباقية من الأسطول الفارسي إلى مضيق الهلسينث (الدردنيل) ، وأرسل الداية ثمستكلز عبده مرة أخرى إلى خشيارشاي ليقول له إنه قد أقتع اليونان بعدم اقتفاء أثر الأسطول الفارسي . وترك خشيارشاي ثلثمائة ألف من رجاله بقيادة مردنيوس ، وعاد مع بقية الجيش ذليلاً كسير القلب إلى سرديس ، فوصلها بعد أن مات في الطريق جزء كبير من قوته بالأوبئة والزحار .

وفي العام الذي انتصر فيه اليونان في سلاميس ، نشب القتال بين يونان صقلية والقرطاجنيين في هيميرا Himera - وقد يكون ذلك في نفس اليوم الذي دارت فيه رحى القتال في سلاميس (٢٣ سبتمبر سنة ٤٨٠ ق . م) إذا صدقنا ما يقوله اليونان أنفسهم . ولسنا نعرف هل كان فينيقيو أفريقية يعملون بالاتفاق مع من كانوا يؤيدون منهم خشيارشاي ومن أمدوا سفنه بكثير من الرجال ؛ وربما كان من المصادفات المحضة أن يجد اليونان أنفسهم يهاجمهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب في وقت واحد (٢٩) . وتقول الرواية المتواترة إن هملكار قائد العارة القرطاجنية وصل إلى پنورموس Panormus على رأس ثلاثة آلاف سفينة وثلثمائة جندي ، ومنها سارة محاصرة هيميرا ، وهناك قابله جيلون Gelon السرقوسي ومعه خمسة وخمسون ألف مقاتل . ووقف هملكار بعيداً عن مكان المعركة كعادة قواد الفيقيين ، وأخذ يحرق القرايين للآفة ورحى الحرب دائرة ،

ولما تبين أنه مهزوم لا محالة ، أتى بنفسه في النار . وأقيم له قبر في تلك البقعة نفسها ، وفيها قتل حفيده هملكون Himilcon بعد سبعين عاماً من ذلك الوقت ثلاثة آلاف يوناني انتقاماً منهم بلخنده (٣٠) .

وبعد عام واحد (أغسطس سنة ٤٧٩) ثم تحرير بلاد اليونان على أثر معركتين إحداهما بحرية والأخرى برية حدثتا في وقت واحد تقريباً . ذلك أن جيش مردنيوس - وكان يعيش مطمئناً من خيرات البلاد - كان قد ضرب خيامه قرب پلاتيه في سهول بوثيه . وهناك اشتبكت معه قوة يونانية قوامها ١١٠.٠٠٠ رجل بقيادة بونياس ملك اسپارطة ، بعد أن ظلت أسبوعين في انتظار فأل طيب يبشر بالنصر . ودارت بينهما معركة كانت أعظم المعارك البرية في هذه الحرب . ولم يكن الجنود الأجانب في جيش الفرس متحمسين للقتال ، وما كادوا يرون الفرقة الفارسية التي تلقت الضربة الأولى من ضربات المهاجمين تنزل أقدامها ، حتى ولوا الأدبار ، وانتصر اليونان على الفرس انتصاراً مؤزراً لم يخسروا فيه (حسب أقوال مؤرخيهم) سوى ١٥٩ رجلاً ، بينما كان عدد القتلى من الجيش الفارسي ٢٦٠.٠٠٠ (*) . وفي اليوم نفسه - كما يؤكد اليونان - التقت عمارة بحرية يونانية بقسم من الأسطول الفارسي أمام شاطئ ميكالي وسط الجزائر الأيونية كلها وملتحى مسالكها ، ونشبت بين الأسطولين معركة تحطم فيها الأسطول الفارسي ، وتحمرت المدن الأيونية من نير الفرس ، واستعاد اليونان سيطرتهم على الهلسينت والبسפור ، كما استعادوا هذه السيطرة من طروادة قبل ذلك الوقت بسبعائة عام .

(٥) لا حاجة إلى القول بأن هذه الأرقام تأتي يذكرها هيروdotus إنما أملتها عليه فورة من فورات الخيال الوطني . وحاول أفلوطرخس أن يكون نزهاً في إيراده للحوادث فرغخ خسارة اليونان على ١٣٦٠ ، ونزل ديودور الصقل - وهو الرجل انكريم حل الدوام فيما يذكر من الأرقام - بخسارة الفرس إلى ١٠٠.٠٠٠ (٣٣) . ولكن أفلوطرخس وديودور لنفسها كأنه من اليونان .

لقد كانت الحرب اليونانية الفارسية أهم حوادث الصراع في تاريخ أوروبا ، ولولاها لما قامت لأوروبا قائمة . فهي التي أتاحت للحضارة الأوربية الفرصة التي أمكنتها من أن تثبت قواعد حياتها الاقتصادية لا تبهظ كاهلها جزية أو ضرائب أجنبية ، وأن تنمي نظمها السياسية ، محررة من سيطرة ملوك الشرق . وبفضلها شقت بلاد اليونان لنفسها الطريق لأولى التجارب العظيمة في الحرية ، وحفظت العقل اليوناني ثلثائة عام كاملة من تصوف الشرق الموهن ومذاهب الباطنية ، وضمنت للمغامرات اليونانية حرية البحار . ونهض الأسطول الأثيني أو جزؤه الذي بقى بعد معركة سلاميس ففتح جميع مرافئ البحر المتوسط للتجارة اليونانية ؛ وهذا التوسع التجارى الذى أصبح بهذه الطريقة ميسراً مأموناً ، أمد أثينة بالثروة التي أمكنتها من أن تنفرد لنشاطها الثقافى من عهد بركليز . يضاف إلى هذا أن انتصار هيلاس الصغيرة على جيوش الفرس الحرارة قد بعث العزة في نفس أهلها وسما بروحهم المعنوية ، فأحسوا بأن الداعى يدعوهم للقيام بجلائل الأعمال اعترافاً منهم بالنعمة التي أنعم عليهم بها . وهكذا دخلت اليونان بعد مئات السنين من الاستعداد والتضحية في عصرها الذهبى المجيد .

(انتهى الجزء الأول)